الجزء الثاني		المجلد السادس والعشرون

مجلة المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥١		٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠

الجمهورية ... مجمع اللغة العربية

بقايا الفصاح

أعود الى موضوع قطعته من أربع سنين ، فقد كنت وضحت في مقالات متقدمة معنى بقايا الفصاح [1] ، فلا أرى بي حاجة الى إعادة ما قلته ، وانما لا أجد مندوحة عن الإشارة الى شأن هذا الموضوع ، فان الذي نشهده في عصرنا هذا ان لغة العامة تقرب كل يوم من لغة الخاصة ، ولا شك في ان من جملة الأمور التي تعين على تداني اللغتين نشر ما تستعمله العامة في كلامها من الألفاظ والتراكيب الفصيحة ، فان الخاصة اذا اهتدت الى مادة تجري على ألسنة العامة وكان أصلها فصيحاً لزمها استعمال هذه المادة حتى يزداد أنس العامة بها .

يقول أهل دمشق : فلان يبيع ربّه ، وهم يريدون بذلك ان فلاناً لا مبدأ له على تعبير هذا العصر وفي هذا التركيب من المعاني الخصبة ما لا نجده في

(١) المقالات منشورة في المجلد السابع عشر والمجلد العشرين والمجلد الحادي والعشرين .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تركيب آخر ، فلسنا نتصور قولاً يصف قلة الذمة والعهد والدين مثل هذا القول ، فاذا كان فلان يبيع ربه فانه مستعد لبيع كل شيء بعد الرب ، فما قيمة الوطن في نظره ، أم ما قيمة الوفاء وأمثال ذلك ، فالتركيب من أبلغ التراكيب ، ولا أحفظ جملة تعمل في قلوب الجماهير مثل هذه الجملة ، واذا نفضنا اللغة والأدب فانّا نهتدي الى جملٍ تدلّ على المعنى نفسه ولكنها ليس لها من القوّة مثل ما لهذه الجملة .

وكم يكون عجبنا شديداً اذا علمنا ان هذا التركيب المستفيض في عامة دمشق يومنا هذا قد استعمله الشعراء في عصر بني العبّاس ، كم يكون عجبنا شديداً اذا علمنا ان دمشق قد احتفظت في لغتها العامة بكلام الشعراء من ألف سنة أو اكثر .

قال أبو العباس المبرد : وكان احمد بن المعدّل من الأبهة والتمسك بالمنهاج والتجنب للعبث والتعرض لما في أيدي الناس واظهار الزهد فيه والتباعد على غايةٍ ، حتى حمل فقهًا وأدبًا من أهل البصرة ، فأخذ الصلة غير ممتنع ولا منكر ووصله اسحق بن ابرهيم الموصلي فقبل ، واستدعى أخاه عبد الصمد فأبى وتخلّى جهده ، فقال عبد الصمد :

عذيري من أخ قد كان يبدي على من لابس السلطان عَتْبه
وكان يذمهم في كل يومٍ له بالجهل والهذيان خُطْبه
فلمّا أن أتته دريهمات من السلطان باع بهنّ ربّه

فاذا نظرنا الى هذا الوصف الذي وصفه المبرد ، اذا نظرنا الى هذه الصفات التي صوّرها في سطورٍ وجدناها بالقياس الى قول الشاعر : باع بهنّ ربّه ، لا شيء .

ومثل هذا التركيب في القوة قول العامة : قام مثل المجنون ، فان العامة اذا مالت الى اللغة المصوّرة استعملت في لغتها أنطق الصور ، فهي اذا أرادت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن تصف رجلاً هاجت به أعصابه وماجت حتى أصبح لا يرى طريقه ولا يهتدي الى وجهه قالت فيه : قام مثل المجنون ، وما أظن ان في اللغة صورة تصوّر رجلاً هذه حاله مثل الصورة التي تستعملها العامة .

وصف صاحب الأغاني أعرابياً عبث به أبان بن عثمان حتى دخل بعضه في بعض غيظاً ، وتربّد وجهه وجحظت عيناه ، وهمّ بالوثوب ثم تماسك ، وصف هذا الأعرابي في روايةٍ تعدُّ من أطرف روايات الأدب فقال في خاتمة الوصف : ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره ...

وهكذا نجد العامة في بعض كلامها تذهب في تشبيهاتها مذاهب البلغاء من الكتاب المتقدمين .

ومن كلام العامة : رأيته رأي العين ، وهم يريدون بذلك التأكيد ، جاء في مادة رأى : رأيته رؤية ورأياً وراءة ورأية ورئياناً .

غلب المصدران : الرؤية والرأي على بقية المصادر فهما أكثر استعمالاً منها ، وهكذا نجد في اللغة ما نجده في عالم الطبيعة ، ففي هذا العالم قانون اسمه الانتخاب الطبيعي ، وفي اللغة تميل العامة الى مثل هذا الانتخاب فتجري الى التخفيف والتسهيل وما شاكل ذلك ، فالرؤية والرأي أخف من الرئيان او الراءة ، واذا كانت الرؤية انما هي النظر بالعين وبالقلب فالذي نعلمه ان الرؤية غلبت على النظر الى الأمور المحسوسة والرأي غلب على الأمور المعقولة ، على ان الأمر غير مطرد ، فان الرأي بالعين لا يزال شائعاً على السنة العامة .

رأى ابو نواس التمساح بمصر قد أخذ رجلاً فقال :

أضمرت للنيل هجراناً ومقلية ... اذ قيل لي انما التمساح في النيل

فمن رأى النيل رأي العين عن كثب ... فما أرى النيل الا في البراميل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقبل ابي نواس قال الأفوه في قصيدته المشهورة :

وترى الطير على آثارنا رأي عينٍ ثقة ان ستمار !

فلا تزال العامة بدمشق تستعمل تراكيب شعراء الجاهلية ومن بعدهم .

ولا بأس بذكر تركيب آخر تدخل فيه العين ، وهو قلب التركيب الأول ، يقولون : هذا عين الرأي وهم يريدون بذلك الرأي الوجيه .

وقد جاء هذا التركيب في شعر احمد بن يوسف ، قال الحسين بن الضحّاك : دخلت على الواثق ذات يوم وفي السماء لطخ غيم فقال لي : ما الرأي عندك في هذا اليوم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما حكم به وأشار اليه قبلي احمد بن يوسف ، فانه أشار بصواب لا يرد وجعله في شعر لا يعارض ، فقال : وما قال ، فقلت : قال :

أرى غيماً تؤلفه جنوب وأحسبه سيأتيها بهطل

فعين الرأي أن تدعو برطل فتشربه وتدعو لي برطل !

فقال : أصبتما ، ودعا بالطعام وبالشراب والمغنين والجلساء واصطبحنا .

ومن المواطن التي استعملت العامة فيها العين قولها : صابوه بالعين او صابته عين ، وهم يريدون بذلك انه لحق به أذى من تأثير العين ، وقد يكون لهذا التأثير تعليل علمي لا مجال لذكره في هذا المقام ، وانما المهم أن نعرف ان هذا التركيب فصيح جاء في الشعر زمن المأمون والأمين .

لما اشتد امر الحرب بين المأمون والأمين على ما هو مشهور كثر الحرق والهدم ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين حتى درست محاسنها على نحو ما ذكره المسعودي في تاريخه واشتد الأمر وتنقل الناس من موضع الى موضع وعمّ الخوف فقال احد شعراء ذلك العصر :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زماناً قرة العين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال شاعر آخر في هذا المعنى :

أصابتنا من الحسّاد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق

والضمير في اهلها يرجع الى بغداد .

وهذا التركيب الفصيح لا يزال مستعملاً في دمشق ، الاّ ان العامة تستعمل صاب بدلاً من أصاب جرياً على عادتها في الميل الى التخفيف والاختصار ، فان مادة صاب أخف على السنتها من أصاب ، وفي اللغة : صابه المطر ، أي مُطر ، وصاب السهم من باب باع لغة في أصاب وفي المثل : ومع الخواطئ سهم صائب ، وفي نجد جماعة من اهلها ينادون في الحرب : انا اخو من طاع الله ، بدلاً من أطاع .

وعلى هذا الوجه ان قول العامة : صابته عين انما هو قول فصيح قديم .

ومن بقايا الفصاح في دمشق قولهم : فلان مزنوق زنقة شديدة ، يريدون بذلك انه متضايق ، مخنوق ، وفي اللغة : زنق على عياله ضيَّق ، وزنق فرسه ، جعل تحت حنكه الأسفل حلقة ، فالمعنيان : العامي والفصيح ، متقاربان ومنه المزنوق اسم فرس لعامر بن الطفيل ، وله يقول :

وقد علم المزنوق اني أكرُّه على جمهم كرَّ المنيح المشهّر

اذا ازورَّ من وقع السلاح زجرته وقلت له اربع مقبلاً غير مدبر

والعامة تقول : زنقة أعمى بقرنة ، والقرنة فصيحة وهي الطرف الشاخص من كل شيء وقد جاءت في كلام الجاحظ ، الاّ ان العامة تريد بالقرنة الزاوية ، بحيث لا يستطيع المزنوق ان ينفلت من الأعمى .

ومن المواد التي تحوّل معناها على الأيام من وجه الى وجه مادة التفرج ، فقد نزل اسحق الموصلي في دار اجرة وخاف ان يطلب صاحب الدار الأُجرة وليس معه شيء منها ، فقال في خبر طويل رواه صاحب الأغاني : فضاق بذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صدري ضيقاً شديداً حتى جاوز الحد فأمرت غلامي بأن يسرج لي حماراً كان عندي لأمضي الى الصحراء أتفرج فيها مما دخل على قلبي ... فأصل التفرج التخلص من غم ، ومن ذلك الفرجة مثلثة وهي التفصي من الهم أي التخلص ، فالمتقدمون كانوا يستعملون هذه المادة في الحال التي يغلب عليهم فيها هم فيحاولون كشفه .

اما اليوم فقد انتقل معنى هذه المادة من حال الى حالٍ ، فاذا قالت العامة : ذهبنا نتفرج ، فهي لا تريد بذلك مجرّد كشف الغم وانما تريد رؤية مشهد عجيب او امر طريف ، والفرجة لا تريد بها العامة التخلص من الهم ، وانما تريد بها مشهداً رائعاً من مشاهد الاستقبال او الاحتفال او اللعب او غير ذلك ، وقد عدّت العامة هذه المادة بعلى فقالت : تفرجنا على كذا ... وعداها المتقدمون بمن : أتفرج فيها ممّا دخل على قلبي ...

فالمواد تتحول معانيها على السنة العامة من وجه الى وجه ، من ذلك : المسايرة .

وردت هذه المادّة في بعض أخبار الأغاني ، في كلام على لسان اسحق الموصلي ، قال اسحق : وكان (اي هذا اللحن) ما تجاريناه ونحن نتساير خارجين الى الصحراء نقطع فضلة خمارٍ بنا .

اصل المسايرة المجاراة ، في اللغة : سايره سار معه ، ولكنّ هذه المادّة اصبح لها في دمشق معنى خاص ، فان العامة اذا قالت : سايره فلان فهي لا تريد بذلك انه سار معه في المشي ، وانما تريد انه سار معه في الرأي والهوى ، فاذا قالوا : المسايرة حلوة ، عنوا بقولهم المصانعة والملاينة وغير ذلك ، وللمسايرة قوة في المعنى لا نجدها لغيرها ، فقد انتقلت هذه المادة من المحسوسات الى المعقولات وفي اللغة شيء كثير من ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقريب من هذه المادة في تحول المعنى : الملاطفة ، وأصلها في اللغة : المبارّة ، وهي من البر ، اي الصلة والاتساع في الإحسان ، ولكنا قد نلاطف الرجل من دون ان نصله او نتسع في الاحسان اليه ، فالملاطفة قد تكون بالوجه او باللسان ، بدلاً من ان تكون باليد ، وهكذا نجد ان هذه المادّة تحوّل معناها الأول من أُفق الى أُفق ، فقد انتقلت من المحسوسات الى المعقولات .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net